حوار على ضفاف الروحانية مع المفكِّر الفرنسيِّ ريجيس دوبريه
المُقدَّس هو الطريقة الفضلى لفهم العالم الأدنى

أجرى الحوار: بيار مارك دو بيازي
تعريب وتقديم: جانيت أبي نادر

تقديم:

في طور متأخِّر من مكابداته المعرفيَّة، ظهرت لدى المفكِّر والفيلسوف الفرنسيِّ ريجيس دوبريه (-1940...) مواقف مثيرة للجدل وغير مألوفة. فقد مضى في كتابه «النار المقدَّسة» إلى قلب هندسته المعرفيَّة رأساً على عقب، ليصرِّح بأنَّ المقدَّس هو أفضل طريق لفهم الدنيويِّ.

يُنظر إلى دوبريه كشخصيَّة إشكاليَّة من وجهين: التجربة، ونظام التفكير. فالرَّجل الذي خاض لجَّة اليسار واختباراته في مستهلِّ النصف الثاني من القرن المنصرم، ظلَّ على مسافة من التجربة، إذ رأى إليها، وهو فيها، بعين الملاحظة والمعاينة والنقد.

هكذا فعل حين صاحب أرنستو تشي غيفارا ورافق ملحمته الكبرى في جبال أميركا اللاَّتينيَّة ووهادها وغاباتها القصيَّة. كذلك سيفعل حين تدرّج بين أمميات اليسار العالمي ثم إلى إيديولوجيات مملوءة بضباب المعنى، سوى أنَّه بفعل التحوُّلات الكبرى التي بلغت أقصاها في بداية القرن الحادي والعشرين، سينتقل إلى طور جديد من التعقُّل، ليتأمَّل سؤال الإيمان باعتباره السؤال الأكثر تداولاً في زمن العقائد المتطايرة وانعدام اليقين.

يدخل دوبريه بعد هذا كلِّه، في لحظة مراجعة، يستعيد كلَّ شيء ويعيد النظر بكل شيء. ليس يبدو أنَّ لديه نظريَّات يقدِّمها إلى الناس كتماميَّات إيديولوجيَّة . لكنه، وهو المُنأخذ على الدوام بسيرورة الحركة والتحوُّل، كما لو أنَّه يجيئنا بأمرٍ جديد وخطب جلل في فضاء نظريَّات المعرفة.

ـ عنوان الحوار الأصلي: **Regis Debray : Penser le Religieux**
ـ المصدر: نقلاً عن مجلة ماغازين ليتيرير **Magazine Litteraire - Paris - No, 124- juin 2003**

يقرِّر دوبريه السَّفَرَ إلى محراب الميتافيزيقا من بعد مكوثٍ مديدٍ في مَواطن العقل الأدنى. يتحدَّث في شأن الدين كما لو كان على ميعاد موقوت مع الألوهيَّة. يسري قوله في الدين مسرى الشغف النادر. لكنَّه، وبفعل قوَّة العادة»، يؤثِر إظهار مسافة ما تميِّز بين يقينه الشخصيِّ الذي لم يستوِ على بيِّنة، وبين الدين بما هو ظاهرة تاريخيَّة وأنثروبولوجيَّة.

انهمامُه بالشأن الدينيِّ تأتَّى عن طريق التساؤل حول السلوكات الفعليَّة للأفراد والجماعات والمجتمعات. ولهذا الاهتمام قصَّة يرويها هو نفسه ردّاً على سؤال وجَّهته إليه مجلَّة «ماغازين ليتيرير» الباريسيَّة فيقول إنَّه اطَّلع في سبعينيَّات القرن المنصرم على كتاب أُعجب به كلَّ الإعجاب وعنوانه: «ما الذي يحرِّض المناضلين في مسعاهم؟Qu'est ce qui fait courir les militants. وهذا الكتاب وضعه طبيب نفسانيٌّ يتساءل فيه عن العوامل الكامنة في مخيَّلة الفرد والتي تحرِّك فيه روح الفداء والتضحية بالنفس في سبيل قضيَّة يعتقدها صواباً. ما كان يشغل الكاتب في هذا العمل هي أسئلة مألوفة أهمُّها: ما الذي يجعل المرء يقرِّر المخاطرة بحياته؟ وما الذي يجعل الفكرة، وإن كانت خاطئة تغيِّر عالم الواقع؟ ثمَّ بماذا نفسِّر انخراط الأفراد في تشكيل عصابات، وجماعات، وأحزاب، وأمم، وكنائس؟ وبالتالي ما الخطوات التي تؤدّي بالناس تدريجيّاً إلى التجمُّع، وما الذي يدفعهم نحو «الفعل»؟...

الإيمان لا يحتاج إلى أدلَّة
وهو غير قابل للإثبات أو الاحتمال

يعلِّق دوبريه على هذه الأسئلة بالإشارة إلى أنَّ الناس غالباً ما يستقبلون الحقائق بشيء من اللاَّمبالاة، ولأنَّها (الحقائق) حقيقيَّة وواقعيَّة، فإنَّها لا تمنح أيَّ قوَّة لتفرض نفسها وتلقى القبول. وفي أحسن الحالات، يتكوَّن لديهم تجاهها نوع من الإجماع الرخو، ثمَّ ينتهي كلُّ شيء عند هذا الحدِّ، بينما تبقى الفاعليَّة الحقيقيَّة، كامنة في القوَّة الخلاَّقة التي تغيِّر الأشياء، وهي الموجودة في منطقة الإيمان croyance ... وسواء كانت هذه القوَّة عادلة أو غير عادلة، صحيحة أو خاطئة، فتلك مسألة أخرى، ذلك أنَّ الإيمان لا يحتاج إلى أدلَّة كونه غير قابل للإثبات أو للاحتمال، بل هو حاسمٌ

ويبرهن على حركته الخلاَّقة بالتوغُّل إلى الأمام. لذا، فإنَّ ما كان يهمُّ دوبريه في هذا المجال تلك الوظيفة المحرِّكة الكامنة في الإيمان، وفي قدرته على سنِّ القوانين المصيريَّة للعالم.

> ما يهمُّني هي الوظيفة المحرِّكة الكامنة في الإيمان وقدرته على سنِّ القوانين المصيريَّة للعالم

ربما كانت الفكرة الأكثر إثارة للجدل في مطارحات دوبريه، اعتقادُه بأنَّ المقدَّس هو أفضل طريق لفهم الدنيويّ. فالشأن الدينيُّ عنده لا يهمُّ المؤمنين وحدهم، بل إنَّ أهل الإيمان هم أقلُّ الناس استفادة منه، لأنَّهم أخذوا منه بالفعل ما يحتاجونه. بالمقابل، فإنَّ أمام غير المؤمنين الكثير الذي ينتظرونه، والذي يمكن أن يتعلَّموه منه عن عالم الواقع. إنَّ الشأن الدينيَّ في الحقيقة يهمُّنا جميعاً مؤمنين وغير مؤمنين، لأنَّنا في نهاية الأمر أمام صورة مقنعة من علم الإنسان (أنثروبولوجيا). ولعلَّ الأهمَّ في ما ينتهي إليه دوبريه في مطارحاته «الإيمانية» أنَّ الثقافة الغربيَّة تبدو في حاجة ملحَّة إلى التخلُّص من هذا التمركُز حول الذات، Nombrilisme والمتمثِّل في القول أنَّ الشأن الدينيُّ هو شأن ينتمي إلى الماضي.

في هذا الحوار الذي أجرته معه قبل سنوات مجلَّة (Magazine Littéraire) الفرنسيَّة، سنجد لدى ريجيس دوبريه عالماً مختلفاً كلَّ الاختلاف، هو عالم المتأمِّل في الشأن الدينيِّ. أمَّا السؤال الذي يظلُّ ماثلاً في الأذهان فهو ذاك الذي يتَّصل بالانعطافة الفكريَّة والوجدانيَّة في سيرته ومسيرته، عنينا به السبب المستتر الذي حمله نحو أفق روحانيٍّ مفارق من بعد رحلة مديدة في مختبرات المادِّيَّة التاريخيَّة ومعاثرها.

في ما يلي نصُّ الحوار:

(إدارة التحرير)

- **«ماغازين ليتيرير»: «النار المقدَّسة» هو أبرز كتاب لك حول الشأن الدينيِّ، وفي المحصَّلة، نرى أنَّك خصَّصت له ألف صفحة تقريباً منذ صدور كتابك «الله، مسار ورحلة»، فما المنزلة التي أوليتها في بحوثك لهذا الشأن؟ وما الذي دفعك إلى الاهتمام بالإلهيَّات؟**

- **دوبريه:** الشأن الدينيُّ بالنسبة إليَّ ليس ظاهرة سابقة، بل هو أمرٌ لاحق. وقد توصَّلت إلى الاهتمام به عن طريق التساؤل حول السلوكات الفعليَّة أو «البراكسيس» (Praxis)، أي عبر فلسفة خاصَّة بالممارسة. ففي السبعينيَّات من القرن الماضي، اطَّلعت على كتاب أُعجبت به كلَّ الإعجاب، عنوانه «ما الذي يحرِّض المناضلين في مسعاهم؟ (Qu'est ce qui fait courir les militants)، وقد وضعه طبيبٌ نفسانيٌّ يتساءل فيه عن العوامل الكامنة في مخيَّلة الفرد التي تحرِّك فيه الروح الكفاحيَّة. وعليه، فإنَّ ما يشغلني هي أسئلة من طراز: ما الذي يجعل المرء يقرِّر المخاطرة بحياته؟ ما الذي يجعل الفكرة، وإن كانت خاطئة، تغيِّر عالم الواقع؟ بماذا نفسِّر انخراط الأفراد في تشكيل عصابات، وجماعات، وأحزاب، وأمم، وكنائس؟ وبالتالي ما الخطوات التي تؤدِّي بالناس تدريجيّاً إلى التجمُّع، وما الذي يدفعهم نحو «الفعل»؟ من هنا، فإنَّ نقطة الانطلاق بالنسبة إليَّ ليست الإبستمولوجيا (نظريَّة المعرفة) على الإطلاق، لأنَّ مشكلة الفلاسفة تكمن في عدم اجتيازهم للمنطق الثاني: خطأ/صواب... حين يتعلَّق الأمر بتطبيق هذه النظريَّة، لذلك فإنَّ الشأن الدينيَّ يكون في جهة الخطأ بلا أدنى شكٍّ، فالصواب لا يوجد إلاَّ في الحقائق، وتفسير ذلك ببساطة هو أنَّه لا يشغل الفلاسفة. لكنَّنا إذا تفحَّصنا الأمر عن قرب سوف يتبيَّن لنا أنَّ كلَّ شيء يدعو إلى الاعتقاد بأنَّ «الصواب»، - بمفهوم «الحقائق» - هو عديم الفاعلية، وأن «الخطأ» هو ذو فاعليَّة فائقة. إنَّنا نعني هنا شكلاً معيَّناً من أشكال «الخطأ» الأسطوريِّ، والخياليِّ، والعجيب، والخرافيِّ، وهي كلُّها أنماط من الفكر غير قابلة للإثبات، وقد تصنِّفها الإبستمولوجيا ضمن «الضبابيِّ»، و«عديم المردود»، و«العقيم»، و «غير المثمر». لكن الواقع يثبت لنا العكس تماماً، فغالباً ما يستقبل الناس الحقائق بشيء من اللاَّمبالاة، ولأنَّها حقيقيَّة لا يمنحونها أيَّ قوَّة لتفرض نفسها وتلقى القبول. وفي أحسن الحالات، يتكوَّن لديهم تجاهها نوعٌ من الإجماع الرَّخو، ثم ينتهي كلُّ شيء عند هذا الحد، بينما الفاعليَّة الحقيقيَّة، هي في تلك التي تغيِّر الأشياء، أي في القوَّة المؤثِّرة بالفعل، وهي الموجودة في جهة الإيمان Croyance. وسواء كانت عادلة أم غير عادلة، صحيحة أم خاطئة، فتلك مسألة أخرى.

> **ماركس لم يستفد من الإيمان بالمسيح أي من الطاقة الثوريَّة الحقيقيَّة لأنه لم يطرح مسألة الممارسة طرحاً صحيحاً**

إنَّ الإيمان لا يحتاج إلى أدلَّة، فهو حاسم وغير قابل للإثبات أو للاحتمال، ويبرهن على الحركة بالتوغُّل إلى الأمام، وما يهمُّني هو تلك الوظيفة المحرِّكة الكامنة فيه، وفي قدرته على سَنِّ القوانين المصيريَّة للعالم. وهكذا انتهيت إلى فكرة «الدافع» عن طريق تلك القدرة على التحرُّك. أريد أن أفهم ما الذي يثير الفعل لديهم؟ ما هو ذلك «الأسطو محرِّك» أو «المحرك غير العقلانيّ» (Mythomoteur). وهذه، كما ترى، صورة أخرى للتفلسف عن طريق المزاوجة بين الفلسفة والأنثروبولوجيا (علم الإنسان).

الدين ليس أفيون الشعوب بل فيتامين الضعفاء من أجل انعتاقهم المادي والروحي

- **«ماغازين ليتيرير»:**

هل اكتسبت صفة القنَّاص هذه Franc - tireur - التي وَضَعَتْكَ في مكانة متميِّزة داخل عالم الفلسفة - من خلال الممارسة العمليَّة في عالم السياسة، أو ما يسمَّى «البراكسيس السياسيّ»؟

- **دوبريه:** ربمَّا.. فقد عشت لفترة مع مناضلين ورجال مقاومة، وإنَّني أتساءل هنا عن السبب الذي كان يدفعهم إلى النضال والتضحية؟ أرى أنَّ ما يدفعهم إلى ذلك هو أمر لا يمتُّ إلى العلم بصِلة، وإن كان يتخفَّى أحياناً وراء حجاب علميٍّ معينَّ، فهو، حسب الحالة، يُسمَّى إمَّا الثورة أو البروليتاريا أو الشعب المنتخب، أو فكرة الله، أي أنَّ ثمَّة، دائماً، في آخر المطاف، إلهاماً دينيّاً. وفي رأيي أنَّ ماركس لم يستفد من الشأن الدينيِّ ومن الإيمان بالمسيح، أي من الطاقة الثوريَّة الحقيقيَّة، ذلك لأنَّه لم يطرح مسألة الممارسة طرحاً صحيحاً، وتحديداً مسألة إدراك ووعي ما يجعل الفكرة تتحوَّل إلى قوَّة ماديّة.

- **«ماغازين ليتيرير»: لكن لينين بعده طرح هذه المسألة ...**

- **دوبريه:** نعم لقد طرحها لينين بالتأكيد، وستالين كذلك، لأنَّهما كانا من رجال العمل والفعل. بالنسبة إليَّ، فإنَّ الفعل والتفكير في الفعل هما اللذان دفعاني إلى إدراك حقيقة أنَّ الشأن الدينيَّ مشبع بالفيتامين، لا بالأفيون، فليس الدين أفيون الشعوب، بل هو فيتامين الضعفاء. وهو ليس مادة منوِّمة، بل هو عنصر ينبِّه ويثير الحماسة. ولا يستطيع الفلاسفة أن يتخيَّلوا ذلك لأنَّهم محبوسون في ميدان جامعيٍّ تنظيريٍّ محض. أمَّا أن يكون للمرء كلُّ هذا الرصيد من سنوات الكفاح، وأن يجد نفسه

مسوقاً إلى أن يسأل عن مبرِّر وجوده بين أربعة جدران، وهو يحمل على أكتافه حكماً بالإعدام، فهذه كلُّها أشياء تضطرُّه لكي يطرح على نفسه أسئلة عمليَّة، وأن يواجه الأشياء بلا مواربة. إنَّ هذا يؤدّي بنا إلى الاعتراف بأنَّ وجود المرء في ذلك المكان له أسباب إيديولوجيَّة بالمعنى القويِّ للكلمة، أي أسباب (ميثولوجية قائمة على معتقدات خرافيَّة). لكننا عندما نغوص حتى العنق في الميثو - لوجي Mythologique ، لا نكون بعيدين جدّاً عن الثيو - لوجي Théologique (علم اللاّهوت).

السبب الذي يدفع المناضلين إلى التضحية بأرواحهم هو أنه لا يمتُّ للعلم بأي صلة، وإن كان يتخفَّى أحياناً وراء حجاب علميّ معيَّن

- **ماغزين ليتيرير: ولكن الفلسفة طرحت على نفسها هذا السؤال بصورة جدِّيَّة، وذلك في إطار المذهب النقديِّ الكانطيِّ مثلاً.**

- **دوبريه:** نعم، هناك كانط... لكن يوجد أيضاً من هو أقرب إلينا، أعني به سارتر، غير أنَّ وجه الاختلاف بيني وبين عصر التنوير، هو الفرديَّة على وجه الخصوص. فالتنوير ينشئ فلسفة الوعي بالفرد والذات، أمَّا ما يبهرني فهو، على العكس، ذاك الذي يقرِّب بين وعي الأفراد، والذي يصنع «المشترك» و«الجماعيِّ»، متجاوزاً القيم الذاتيَّة والفرديَّة بل وعلى حسابها أحياناً. قد نجد أنفسنا هنا في منطقة قريبة من دوركهايم حين يرى أنَّ التجمُّع في حدِّ ذاته هو إمَّا «شأن ديني» أو «لا شيء». وسواء تعلَّق الأمر بتمجيد الميت، أو الجدود، أو تاريخ حدث خرافيٍّ أو حدث تأسيسيٍّ أو بإحياء ذكرى ... فإنَّ كلَّ هذه المعتقدات ترتكز على أفكار في غاية الجنون، لكنها متماسكة، فهي تحرِّك الجماهير وتضبط اتّجاه التاريخ.

- **ماغازين ليتيرير: في الوقت نفسه، نجد أنَّ هذا البحث حول ما يقرِّب الصلة، وما يجمِّع، إنّما يقود إلى علم الاجتماع، مع أنك بعيد جداً عن ذلك.**

- **دوبريه:** نعم ، ربما لأنَّ علماء الاجتماع لا يرجعون إلى الأسباب، فهم يصفون النتائج ويهتمّون بواقع الأشياء من دون أن يشغلوا أنفسهم بمصدرها. إنَّهم لا يميلون إلى علم التاريخ، أمَّا أنا، فإنني أسعى لتنظيم وتعيين عوامل القوَّة التي تخترق عصور التاريخ بانتظام، وأحياناً باستمراريَّة تجعل المرء يقرُّ - إلى حدٍّ ما على الأقل – بأنَّ شيئاً ما في تلك العوامل يتبلور ليتحوَّل إلى ثوابت.

- **ماغازين ليتيرير: في الواقع، يتساءل البعض في شيء من القلق: هل أصبح ريجيس**

دوبريه عالماً روحانيّاً؟ أنت الآن، هل تؤمن بالغيبيَّات المتسامية Transcendance ؟

- **دوبريه:** كلاَّ، الروحانيَّات لا تهمُّني إطلاقاً، بل تهمُّني البراغماتيَّة، لذلك أميِّز بين الروحانيِّ والشأن الدينيِّ. بصراحة، لا أعرف الروحانيَّ، ولم تكن لي أيَّة تجربة روحانيَّة، لكنَّه حقيقة. بالطبع هناك حتميَّة الموت بالنسبة إلى الجميع، وأعتقد أنَّ الشأن الدينيَّ مرتبط أشدَّ الارتباط برفض فكرة الموت، الأمر هنا يتعلَّق بحياة إضافيَّة. فأيُّ كائن حيٍّ لديه ولو شرارة من الذكاء يدرك أن وجوده زائل، ولا يمكنه إلاَّ أن يتَّجه إلى الشأن الدينيِّ والميثولوجيَّات طالباً منها إضافة ليست روحيَّة بل جسديَّة.

- **ماغازين ليتيرير: بعد موت صديق له، كتب فلوبير في بعض كراساته التي تعود إلى فترة شبابه: «إنَّ فكرة خلود الروح تولَّدت من مشاعر الحسرة على الموتى»، بماذا تعلّق؟...**

- **دوبريه:** هذه صياغة رائعة، وهي صحيحة بالتأكيد، وينتابني دائماً شعور بالدهشة عندما أتبيَّن إلى أيِّ مدى يدرك الكتاب مثل هذه الحقائق بصورة أسرع وأعمق، ممَّا يدركه الفلاسفة. إنَّهم أكثر التصاقاً من الفلاسفة بالعلم الإنسانيِّ المحسوس.

- **ماغازين ليتيرير: الاهتمام بالشأن الدينيِّ في أعمالك ليس جديداً، بل كان دائم الحضور في أبحاثك الأولى في مجلَّة «الميديولوجيا» ، إذ شكَّل التفكير في أمر رهبان الكنيسة لحظة هامَّة من مجموع الأدلَّة البرهانية ..**

- **دوبريه:** نعم، هذا صحيح، لأنني وجدت دائماً أنَّ رجال الكنيسة هم أقرب إلى الممارسة الواقعيَّة مقارنة برجال العلم، والسبب هو أنَّ مشكلتهم لا تتمثَّل في معرفة الصواب والخطأ - فهذه المشكلة تتولىَّ حلَّها العقيدة - بل في فهم قضايا الناس. كذلك فإنَّ اتّساع المدى الزمنيِّ في ما يتعلَّق بالشأن الدينيِّ يتيح اتّباع منهج معينَّ بكلِّ مراحله مهما كان طولها، أي على مدى قرون أو آلاف السنين، ذلك على خلاف المجال السياسيِّ أو الاقتصاديِّ الذي يمكن اعتباره شأناً دينيّاً زائلاً، محكوماً بظاهرة إعادة التشكل المستمرَّة، لأنَّه قائم على معتقدات قصيرة الأجل. فالشأن الدينيُّ هو إذن شأن سياسيٌّ جادٌّ وشأن اقتصاديٌّ ذو مردود، لأنَّه يتَّصف بالديمومة.

> ثقافتنا الغربيَّة في حاجة ملحَّة إلى التخلُّص من التمركُز حول الذات والمتمثِّل في القول أنَّ الشأن الدينيَّ ينتمي إلى الماضي

• ماغازين ليتيرير: تلازم أعمالك الكثير من الرسوم، حيث التمثيل البصريُّ في داخلها مسألة ثابتة. والشأن الدينيُّ يهمُّك أيضاً منذ فترة طويلة بسبب من قدرته على إتاج الصورة واستخدامها.

- **دوبريه:** بالفعل، هذه نقطة أخرى مهمَّة، ذلك أنَّنا نجد في البناءات الثيولوجية ((اللاهوتية)) الكثير من الواقعية، وهي واقعية تعبرِّ عن نفسها بأسلوب «فوق طبيعي»، لكنها تستخدم الرمز استخداماً موفقاً: ففكرة التجسيم وفكرة الصورة بوصفها وسيلة لمعرفة العالم الآخر، تشكلان في - تصوُّري - أدوات مهمة جداً لتفسير الواقع في عالمنا. كما أن الصورة بوصفها عنصراً توسطياً - إنما هي مسألة دينية في الأساس، وكانت محل جدل في المجتمع الديني. بينما الصور التي تحتل كل هذه المكانة في كوكبنا - الكوكب - الشاشة (Vidéosphére)، أي هذا الإنئخاذ بالصورة حتى العبادة، وهي سمة يختص بها عالمنا المعاصر، لا يعدو كونه نوعاً من إعادة التدوير، تدوير التاريخ الإنساني (الأنطولوجي) أنَّ هذا التكرار اللاَّنهائي يكاد يقضي على قوَّة التأثير المطلقة، والوظيفة التواصليَّة اللتين منحتهما الكنيسة للـ «صورة». لكن ليس هذا سوى مثال من بين أمثلة أخرى متعدِّدة. إنني مقتنع بأنَّ المقدَّس هو أفضل طريق لفهم الدنيويِّ. فالشأن الدينيُّ لا يهمُّ المؤمنين وحدهم، بل يمكننا القول أنَّ أهل الإيمان هم أقلَّ الناس استفادة منه، لأنهم قد أخذوا بالفعل ما يحتاجونه. وبالمقابل، فإنَّ أمام غير المؤمنين الكثير الذي ينتظرونه من الشأن الدينيِّ والذي يمكن أن يتعلَّموه منه عن عالم الواقع. فالشأن الدينيُّ في الحقيقة يهمُّنا جميعاً مؤمنين وغير مؤمنين، لأننا في نهاية الأمر أمام صورة مقنعة من علم الإنسان (أنثروبولوجيا.

• ماغازين ليتيرير: ربما يساعدنا الشأن الدينيُّ - من خلال الأساطير - على فهم ذلك التضامن الجماعيِّ الذي ينسج - رغماً عنا - خيوطاً وهميَّة، هي التي تربطنا بالعالم والآخرين، فالعملة الورقيَّة على سبيل المثال تنتمي إلى تلك القوَّة الغامضة للأسطورة، أي إلى الوهم، والمعتقد...

- **دوبريه:** نعم، لقد ذكرت قبل قليل فلوبير، لكن هناك كاتب آخر استطاع أن يفهم كما ينبغي هذه المسألة، إنه بول فاليري. فقد كتب حول مسألة «التضامن» أروع الصفحات، إذ يبينِّ أنَّ كل مجموعة إنسانية تعيش بــ «التضامن» في ما بينها، حول عدد معينَّ من المسلَّمات والمعتقدات القائمة بدورها على الولاء التلقائيِّ من قبل الجميع. لكن في اللحظة التي يكف فيها معظم الناس عن الإيمان بأنَّ الورقة النقديَّة تعادل القيمة التي تعلن عنها، تكون نهاية النظام النقديِّ الذي تمثِّله تلك الورقة. فالإيمان هو أساس كلِّ قوة، لكنه يعني في الوقت نفسه هشاشة كلِّ نسق. على أية حال فإن جذور ظاهرة التضامن تمتدُّ عميقاً في الشأن الدينيِّ. لنأخذ الورقة الخضراء مثلاً: فهي

تجمع بين الإيمان بجهاز مالي رسمي هو الاحتياطي الفيدرالي والإيمان المعلن بالأمة المختارة «الولايات المتحدة الأميركية، ثم، في أفضل موقع وبالتحديد أعلى الرقم الذي يبيّن القيمة المثبتة على وجه الورقة الإيمان بالله In God we trust هذه الثقة Confiance هي - في أساسها - شأن ديني. والقوة كل القوة تكمن هنا، في صيغة «كأنه ...».

وبطبيعة الحال، هذه الـ «كأنه..» ليست معزولة، فهي ترتكز على ما لا يحصى من مثيلاتها . وهي تؤازر بعضها بعضاً فالإيمان - بطبيعته - يقوم على عوامل متعددة. ومثله كمثل توازن القصر المشاد بالورق. إذ لا يمكن أن يتحقق توازنه إلاّ بفضل تراكم الأساطير المتعاضدة. وهكذا فإنّ الثقة في نظام نقدي معين ترتكز هي نفسها على أشكال أخرى من الأئتمان الى حد ما - افتراضية، مثل مستوى الأداء التكنولوجي، الإنتاجية الصناعية، والقوة العسكرية، إلخ. لكن تلك الأشكال يمكن أن تنجم - في الوقت الملائم - من إجراءات انتقاميَّة حقيقية ضدَّ كلِّ من يشكّك في المعتقد أو يتهدَّده.

- **ماغازين ليتيرير: كلمة ختاميَّة بخصوص «النار المقدَّسة» هذا الكتاب الذي جمعت فيه عصارة أفكارك في الشأن الدينيِّ، هل يمثِّل حقبة سوف تليها حقب أخرى، أم أنَّه عمل حصريٌّ سوف ينتهي عند هذا الحدّ؟**

بالنسبة إليَّ، تجد مجموعة أعمالي حول الشأن الدينيِّ نهايتها عند هذا الحد. «النار المقدَّسة» كتاب حصريٌّ، وهو خلاصة ما أردت قوله، وهذا ما يفسِّر طابعه الموسوعيِّ، وغزارة المعلومات الواردة فيه. إنَّه نقطة النهاية. لقد سبق أن أثرت منذ عشرين سنة أطروحات للبحث، وقدمت حول الشأن الدينيِّ تحليلي الخاصَّ، ولن أمضي إلى أبعد من ذلك. إنَّها مساهمة، لكنني على يقين من أنَّ ثقافتنا الغربيَّة تبدو في حاجة ملحَّة إلى التخلُّص من هذا التمركُز حول الذات Nombrilisme والمتمثِّل في القول أنَّ الشأن الدينيَّ هو شأن ينتمي إلى الماضي. لقد أُعيد توظيف الشأن الدينيِّ في كلِّ أنواع الديانات المدنيَّة - Séculiéres وحالما تنهار هذ الديانات «الأفقيَّة» ، سوف نشهد الصعود الجنونيَّ للدين بشكله العتيق، أي الدين «ذو العلامة المسجّلة» ، Labellisé، سوى أنَّه حتى مع وجود هذه الظاهرة فمن غير المؤكَّد أنَّها ستكون عودة حقيقيَّة إلى الماضي، فهنالك أسلوب للانتماء إلى الدين قد ولىَّ، وهو الأسلوب المؤسّسيُّ، العقائديُّ، المذهبيِّ، الكنسيّ. بالمقابل، نشهد عودة ظهور المذاهب، فهي تملك على الجملة جوهراً دينيَّاً عميقاً.

لم يكن إحياء الدين أو تجديده لدى الطائفة اليهوديَّة مثلاً أمراً وارداً منذ أربعين سنة، ولو أن أحداً أنبأ ريمون آرون بهذا لما صدَّقه. كان المرء يهوديَّاً بالثقافة، وهو الآن يصبح يهوديَّاً بالديانة. أمَّا مسألة الطوائف المسلمة فهي تُطرح بشكل مغاير تماماً لكنها ليست أقلَّ جدّيَّة. كذلك فإنَّ العالم المسيحيَّ وعلى طريقته - يمرُّ بحالات متشابهة تماماً. نعم، هناك ضرورة عاجلة لفهم الشأن الدينيّ.

سيرة ذاتيَة مقتضبة

وُلد ريجيس دوبريه في باريس في الثاني من أيلول (سبتمبر) 1940، ودرس في المدرسة العليا للأساتذة وكان المفكّر لوي ألتوسير من أبرز أساتذته. ظهر بشخصيَّته في سينما الواقع في فيلم «وقائع الصيف» للمخرجَين جان روش وإدغار موران في عام 1960. أصبح «أستاذاً مشاركاً في الفلسفة» خلال عام 1965. وخلال أواخر الستينيَّات عمل أستاذاً للفلسفة في جامعة هافانا في كوبا، وأصبح شريكاً لتشي غيفارا في بوليفيا. من أهمّ مؤلَّفاته كتاب «ثورة في الثورة»، الذي حلَّل العقائد التكتيكيَّة والاستراتيجيَّة السائدة آنذاك بين الحركات الاشتراكيَّة المتشدِّدة في أميركا اللاَّتينية، كما وضع كتيباً لحرب العصابات الذي استكمل فيه دليل جيفارا الخاص بالموضوع عام 1967 في باريس.

قُبِض على غيفارا في بوليفيا في أكتوبر 1967، وفي 20 أبريل 1967 تم القبض على دوبريه في بلدة «مويوبامبا» الصغيرة في بوليفيا وحكم عليه بالسجن لمدة 30 عاماً بعد إدانته بمشاركته في حرب العصابات مع غيفارا. أطلق سراحه خلال عام 1970 بعد حملة دوليَّة لإطلاق سراحه، شملت مناشدات من جان بول سارتر، وأندريه مالرو، والجنرال شارل دي غول، والبابا بولس السادس. لجأ إلى تشيلي، حيث كتب «الثورة التشيليَّة» عام 1972 بعد مقابلات مع سلفادور أليندي، ثم عاد إلى فرنسا خلال عام 1973 عقب الانقلاب الذي قام به أوغستو بينوشيه في تشيلي.

بين العام 1981 وحتى 1995 سيصبح دوبريه مستشاراً رسميًّا للرئيس في الشؤون الخارجيَّة بعد انتخاب فرانسوا ميتران رئيساً لفرنسا في عام 1981. بهذه الصفة وضع سياسة تهدف إلى زيادة حريَّة تصرُّف فرنسا في العالم، وتقليل الاعتماد على الولايات المتَّحدة، وتعزيز التقارب مع المستعمرات السابقة. شارك أيضاً في تطوُّر الاحتفالات الرسميَّة للحكومة، والاعتراف بالذكرى المئويَّة الثانية للثورة الفرنسيَّة. استقال خلال عام 1988. وحتى منتصف التسعينيَّات، حيث شغل عدداً من الوظائف الرسميَّة بما في ذلك مستشار فخريٍّ في المحكمة الإداريَّة العليا الفرنسيَّة في مجلس الدولة.

نشر دوبريه مذكرات عن حياته في عام 1996، تُرجمت إلى الإنكليزيَّة باسم «ريجيس دوبريه، الحمد لله ربنا» (دار فرسو، 2007). ومن أعماله الأخرى: «سلطة المثقَّفين في فرنسا» (1979)، و«نقد العقل السياسيّ» (1981)، و«دروس في الميديولوجيا العامّة» (1991)، و«حياة وموت الصورة» (1991)، و«النار المقدَّسة» (2003)، و«خطأ في الحساب» (2014)، و«القرن الأخضر» (2020).